قراءة نقدية في نص تراثي لفروة بن مسيك

الأستاذ الدكتور
فليح كريم الركابي ياسين عباس حسين

الشعر عند العرب مستودع فكري ضخم يحوي تجاربهم الشخصية ومعاناتهم الفكرية وعلاقاتهم الإنسانية فكانت العلاقة بينه وبينهم حميمية لذا اكتسبوا خصوصية بين الأمم أنهم امة شاعرة ديوانها الشعر على الرغم من أن العلاقة بين الإنسان والشعر هي ((علاقة وجود وتعاصر أبديين، فالمخاض الإبداعي صورة ملازمة لمعطيات أقدم الحضارات الإنسانية وأحدثها وقد تتغير الأنماط، وتتباين الوسائل، وتتشعب السبل، ولكن الشعر يبقى منفذ تجاوز لحظات التسامي الإنساني الذي تستحيل الكلمة معه نبضاً أصيلاً، حتى تكاد أن تخرج من إهابها الذي الفته وألفه الناس لها، ثم تتضاءل المسافات، ويتراجع الزمن حين تغدو هذه الكلمة جسراً ابدياً يربط بين الإنسان والإنسان)).[١]

في هذا البحث نقدم قراءة نقدية لنص تراثي نحاول من خلالها إضاءة الاستخدام الجمالي للغة على وفق منهج تحليلي الا وهو تحليل شعرية النص على الرغم من كون نصنا المدروس شعراً قد تسامى على صفحات الأدب العربي أو لأن ((الشعرية أو النظرية الأدبية دراسة للبنى المتحكمة في الخطاب الأدبي)).[٢]

فبواسطة التحليل وتفكيك البنى المهيمنة نستجلي قيمة الموضوع الفنية وما يكمن خلف الألفاظ من مضامين فكرية ((لان الأدب استعمال خاص للغة))[٣] وان هذه الخصوصية جاءت إلى اللغة من نسقها المحكم عند الأديب المبدع الذي يفرض هيمنة تامة على تفكير المتلقي بواسطتها وبتأثير

صورها التي تفرض التأمل عليه، فيكون منقاداً ذاتياً وذوقياً لأنه اكتشف المعنى واستوعب الصورة فكانت اللغة الوعاء الذي احتواها.
ونصنا المدروس قصيدة اختلف في نسبتها ولكن المضان الأدبية والتاريخية ترجح انها للشاعر فروة بن مسيك وذلك ما أورده ابن الأثير حين قال((فيها قدم وفد من مراد مع فروة بن مسيك المرادي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مفارقاً لملوك كندة، وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة ظفرت فيها همدان وأكثروا القتل في مراد وكان يقال لذلك اليوم يوم الرزم وكان رئيس همدان الأجدع بن مالك والد مسروق).[٤]
وفي ذلك يقول فروة :

فان نَهزم فهزامون قدماً وان نهزم فغير مهزمينا
وما ان طبنا جبن ولكن منايانا ودولة اخرينا
فقل للشامتين بنا افيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
اذا ما الدهر جر على اناسٍ بكلكله اناخ باخرينا
كذاك الدهر دولته سجال تكر صروفه حيناً وحينا
فبينا مايسر به ويرضى ولو لبست غضارته سنينا
اذا انقلبت به كرات دهرٍ فألفى للأَلى غبطوا طعينا
ومن يغبط بريب الدهر منهم يجد ريب الزمان له خؤونا
فلو خلد الملوك اذاً خلدنا ولو بقي الكرام اذاً بقينا
فأفنى ذاكم سروات قومٍ كما افنى القرون الأَولينا[٥]

وقد فارق فروة بن مسيك قومه متوجهاً الى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقد انشده بعض الابيات قال له الرسول(ص) : ((يافروة هل ساءك ماصاب قومك يوم الرزم؟ فقال: يارسول الله من ذا يصيب قومه مثل ماصاب قومي ولم يسؤه ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان ذلك لايزيد قومك في الاسلام الا خيراً))[٦] وفي رواية اخرى لابن الاثير وقد جعلها ثمانية ابيات اذ اسقط البيت الثالث والرابع فضلاً عن ان البيت الاول ورد صدره برواية اخرى وهي : فان نغلب فغلابون قدماً وان نهزم فغير مهزمينا[٧]

والرواية الاولى ابلغ واكثر انسجاماً وتساوقاً للحروف الموقعة وهي(فان نهزم فهزامون قدما) لان حرف الهاء اعطى البيت ايقاعاً متواصلاً وهو من الحروف الرقيقة المؤثرة التي تفيد التنبيه.

ان هذه القصيدة لها مكانة تأريخية وادبية مهمة كون الشاعر لم يرو له سواها وثانياً اهميتها وقد اختلف في نسبتها بيد ان اغلب الروايات ترجح انها لفروة وهي من عيون الشعر العربي وموضوعها متجدد مع تقادم الزمن وان استشهاد الامام الحسين بن علي بن ابي طالب (عليهما السلام) بها يوم واقعة الطف اعطاها اهمية كبيرة وطاقة تعبيرية اضافية وجعلها متداولة على الالسن.

بدأ الشاعر القصيدة بالشرط الذي يفيد التوكيد وكانت(إن) تعني الاصرار على الانتصار الابدي بعد هزيمة قاسية فتمسك به رافضاً الهزيمة وثابتاً على المبدأ وقد كانت الشعرية حياة النص وسرد ديمومته حين اكد الشاعر الفروسية والشجاعة والاقدام على الرغم من التسليم بتقلبات الدهر وهذه حالة طبيعية فالدنيا دول يوم لك ويوم عليك ولاخلود فيها الا للاعمال النبيلة الشريفة وان الموت يطوي الملوك والرعية وهو طريق الحياة وتجددها وحكمة الهية رائعة يهلك قوماً ويستخلف اخرينا.

القصيدة من السهل الممتنع وكانت الفاظها سهلة خالية من الوعورة واسلوب الامر الشرطي مهيمناً عليها منذ البدء وقد بين لنا حالة الشاعر النفسية واستسلامه لما وقع له ولقومه فعالج الامر بهدوء وروية.

كان الدهر بطل القصيدة وهو الذي سيسرد الاحداث ويتولى الامر نيابة عن الشاعر ويقوم بالقصاص من اعدائه وان من سره يوماً سيقلب له ظهر المجن مرات، وقد تصرف الشاعر بحكمه في معالجة الحدث فضلاً عن ان الدهر هو الله سبحانه وتعالى.

القصيدة حكت السبب والنتيجة وقد استخدم الشاعر ادوات الشرط ليؤكد كلامه ويؤثر في نفوس سامعيه وكان مستسلماً لحوادث الدهر وقد ازداداً ثباتاً حينما قابل الرسول الكريم (ص).

ان هذه القصيدة قيلت بعد الهزيمة ومقتل عدد كبير من قبيلة فروة فجاء اسلوبه اقناعياً يحاول ان يرضي نفوس ابنائها بان الزمن سيأخذ بثأرهم لذا

جاءت خالية من الحماسة تحاول ان ترضي النفوس بالقبول بما حل بها، ولكن لو افترضنا ان النتيجة كانت عكس ذلك لقرأنا نصاً فيه تحدياً وافتخاراً وانتقاصاً من المقابل ويبدو ان طبيعة النفس الانسانية جبلت هكذا.

ان الشاعر اوكل الامور الى الدهر فكان بطل القصيدة وهو الشخصية الرئيسة في سرد الاحداث وهو الراوي والمروي له وهذا مايؤكد خسرانه وقد كرره اربع مرات فكان المبتدأ و الفاعل الظاهر والفاعل المستتر وكثيراً ماعول الخاسرون في التاريخ عليه .

كان الخطاب الأدبي في القصيدة على لسان الجماعة ولم يكن فردياً لان الشاعر جزء من كل وأراد أن يعبر بلسان الكل فضلاً عن ان خسارة قبيلته في تلك المعركة جسيمة في الرجال، ومن يقرأ القصيدة جيداً يشعر بمرارة المأساة وحجم الخسارة وغياب جماعة المخاطبين تماماً لان الدهر أناب عنهم وسيأخذ بحقهم ويقضي على أعدائهم وهذه نتيجة حتمية لان الدهر سيهلك الإنسان شاء أم ابى.

هذه القصيدة شابهت كربلاء الامام الحسين عليه السلام حين خسر المعركة مادياً ولكنه انتصر معنوياً على مر العصور فكان انتصار الدم على السيف وان الدهر سحق الجبابرة واحالهم الى عدم بينما ذكرى الامام الحسين عليه السلام بقيت متجددة وستبقى الى يوم الدين.

هيمن ضمير جماعة المتكلمين على القصيدة اذ اراد الشاعر ان يتحدث باسم قومه وهم يتعرضون الى ابادة جماعية على يد الاعداء فكان الناطق باسم القبيلة.

ادت ادوات الشرط دوراً فاعلاً في التأكيد على الانتصار مستقبلاً وكان تكرارها(إن) ثلاث مرات، (اذا) مرتين، (لو) ثلاث مرات،و(من) مرة واحدة وكان دورها تلبية رغبة النفس وتحقيق امانيها بالانتصار على يد الدهر .

بناء الزمن في القصيدة يبدو انه كان متساوياً تقريباً بسبب قصر القصيدة وان نظرة الشاعر كانت واعية فخسارة الامس سيعوضها المستقبل حين ترك الامور تدار من الدهر وان الفناء امر واقع لا محالة للانسان فلابقاء ولا خلود في الحياة الدنيا الا لله وهذا ما شد من ازر الشاعر وجعله مؤمناً

وموقناً بذلك لذا هجر دين الجاهلية وامن بالإسلام وقد استعمله الرسول الكريم (ص) في ادارة امور المسلمين فيما بعد.
القصيدة كانت لوحة متماسكة تحدثت عن صورة الانتصار المعنوي والخلود الابدي على صفحات الزمن وان الحكمة المستوحاة من الحياة ومن هذا النص ان الدهر كفيل بسحق الجبابرة وكشف الحقائق والزيف للاخرين وان الدنيا يومان والحكيم من اوكل الامور الى الله والدهر .
كانت النون اكثر الحروف تكراراً في القصيدة وقد وردت خمساً وثلاثين مرة فصوت النون ((اذا لفظ مرققا أوحى بالاناقة والرقة والاستكانة، واذا لفظ مشدداً بعض الشئ أوحى بالانبثاق والخروج من الاشياء))[٨] وكذلك يوحي بالانين والحسرة.
اما حرف الهاء فتكرر اربع عشرة مرة وهو حرف لين رقيق كما النون في اللغة العربية وقد وهبا القصيدة اناقة ورقة وزادا من جمالها الصوري والتصويري وتأثيرها في نفس السامع.
وحرف الفاء تكرر اثني عشرة مرة، وقد بت الشاعر بواسطته نفثات صدر مكلوم وتأففات استحكمت في نفسه جراء هزيمة قومه وتعرضهم الى الابادة.
ان هذه الحروف كانت لها سمة بارزة في القصيدة واعطتها بعداً دلالياً حين ركز الشاعر على تكرارها.
والصورة في قصيدة فروة كانت فنية رائعة استخدم فيها البيان فكانت الاستعارة في قوله((أناخ باخرينا)) وكأن الدهر جمل والثانية في قوله ((فألفى للألى غبطوا طعينا)) وفي رواية اخرى لابن الاثير وردت ((طحينا)) فالاولى وكأن الدهر انسان مطعون يحفه الموت او ان الانسان اصبح كالطحين وهذه استعارة جميلة تحذر الجبابرة من النهاية التي سيحاكمهم الدهر بها وتكون قاسية بحقهم. ان الشاعر اراد ان يصور لنا تقلبات الزمن فهو يرفع من يشاء ويذل من يشاء باذن الله تعالى.
المتأمل لهذه القصيدة يلاحظ ان استخدام الافعال كان رائعاً بواسطة الثنائية الجميلة في َنهزم و ُنهزم ويغبط وخؤون وخلد وبقي، لقد اعطت هذه الافعال الصورة بعداً دلالياً ممتعاً وهذا مايؤكد براعة الشاعر وامكاناته في توظيف اللفظة، فالخلود دوام البقاء وقرن به الملوك وذلك ماحفظته صفحات التأريخ

لنا ولكن لاخلود بالشئ المادي الا لله سبحانه وتعالى. اما البقاء فوصف الكرام به وهو البقاء مدة طويلة علماً ان الكرام على صفحات التأريخ قلة ولم يكونوا كالملوك لان التأريخ كتب في بلاط الملوك ان الصفتين كانتا من الاماني عند الانسان وان الشاعر اراد ان يخاطب العقول بان تستفيق من غفوتها وغفلتها ولاسيما الطغاة وان الدهر وهو لفظة فيها قسوة على المسامع سيسحق كل شي ويشعر الانسان في مواجهته بالضعف والانكسار، وحينما عاد الشاعر واستخدم لفظ الزمان هذا مافرضته الضرورة الوزنية وهو لفظ يعني القليل من الوقت بينما الدهر فهو الابد والطول والقساوة وسحق الاخر او الطرف المقابل.(٩)

ايقاع القصيدة كان رائعاً وهو ايقاع البحر الوافر وحرف رويها النون مع الف الاطلاق وكانت القافية مردوفة بحرف الياء، وان الالتزام بهذه الحروف وتساوقها اعطى جرساً لفظياً رائعاً شابه جرس معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي ولان النون ((اصلح مايكون للتعبير عن معاني الرقة والاناقة والجمال والخفاء والاحاطة والطمأنينة))(١٠) ولاسيما اذا وقع في اخر الكلام. والقارئ لهذه القصيدة يلاحظ ان الشاعر لم يبدأ بالتصريح لاسباب عديدة منها: يبدو لعدم حاجته اليه لانها مباشرة وصريحة في عرض المأساة ولاهميتها – أي المأساة- في نفس الشاعر فضلاً عن قوة الموضوع والجرس الموسيقي المتوافر في الالفاظ والقافية المردوفة، وانها قصيدة صادقة عرضت علينا الحقائق والحكم وانها كانت مرتجلة وقصيرة والشاعر يبدو كان على عجالة من أمره .

وفي الختام نقول ان قصيدة فروة بن مسيك رائعة في مبناها عميقة في معناها سجلته شاعراً عربياً مبدعاً على الرغم من قلة شعره على صفحات كتب التأريخ والادب وان الخلود الشعري لايعني الاكثار من الشعر فربما يضر الاكثار بصاحبه وتكون هناك قصيدة واحدة رائعة يخلد بها صاحبها كما خلد ذكر شعراء الواحدة. فهذا فروة يعيش بيننا من خلال رائعته القصيرة التي كانت على لسان امامنا الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام يوم معركة الطف. والنص واقعي بالامكان الاستشهاد به في كل زمان، وهو عظة رائعة لبني الانسان

هوامش البحث ومصادره

١-كتاب التراث، منشورات مجلة الطليعة الأدبية اعداد د. محمود الجادر و د.بهجت عبد الغفور، وزارة الثقافة والفنون ، دار الجاحظ طبع دار الحرية للطباعة ١٩٧٩ ص[٣] .

٢-اتجاهات الشعرية الحديثة الاصول والمقولات د.يوسف اسكندر دار الشؤون الثقافية العامة ط[١] بغداد ٢٠٠٤ ص[٩] .

٣-البنيوية والتفكيك تطورات النقد الادبي س. رافيندران ت. خالده حامد دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ط[١] ٢٠٠٢ ص[٣٣] .

٤-الكامل في التاريخ لابن الاثير – دار صادر للطباعة بيروت ١٩٦٥ جـ[٢] ص[٢٩٥] .

٥-نفسه نقلاً عن مجلة الكوثر التي تصدر عن مؤسسة اهل البيت الثقافية – النجف الاشرف ص[٥٤] عدد شباط السنة الخامسة ٢٠٠٤.

٦-نفسه طبعة دار بيروت جـ[٢] ص[٢٩٦] .

٧-نفسه ص[٢٩٦] وقد وردت روايات أخرى فيها تاريخ الطبري لأبي جعفر بن جرير الطبري طبعة بيروت دار الفكر ٢٠٠٢ ٣ /٢١٥، والبداية والنهاية لابن كثير ٣ /٦٨ ، دار الحديث القاهرة ط[٦] ١٤٢٣ ، الحماسة البصرية ٢ /٤١٦ وقد اختلف في عدد ابياتها وكذلك في ترتيبها .

٨-خصائص الحروف العربية ومعانيها / حسن عباس منشورات اتحاد الكتاب العرب – تونس ١٩٦١ ص[١٦٧] .

٩-ينظر لسان العرب لابن منظور مادة خلد وبقي.

١٠- خصائص الحروف العربية ومعانيها ص[١٦٠] .